مقدمة المحتني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والصلاة على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم هو هداية الله العظمى، ورسالته الخالدة، وهو شريعة الله ودينه الذي ارتضاه لعباده، من ابتغى الهدى في غيره فلن يُقبل منه، ومن اعتصم به فلن يَضِلَّ عن صراط ربه، وهو الروحُ الذي يطير به الإسلام إلى القلوب، والمدُّ الساري في تغذية الأرواح والنفوس، والنظامُ الكامل الكافل لسعادة الإنسان، في هذه الدنيا، ثم في الآخرة في أعالي الجِنان.

ولكن من المؤسف أن نقول: إن هذا الدستور الذي يَضُمُّ بين دفتيه ما يريده الله تعالى للمسلم من اعتقاد وعمل وسلوك، غدا اليوم قراءةً مجردة من ذلك، أو قراءة للبركة، أو قراءة إهداءٍ للأموات في مناسباتٍ اجتماعية كثيرة، وفي سورة يس التي تُقرأ على الأموات قولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]!!!

* * *

ولا يقصد بقراءة القرآن المطلوبة إصدارُ الأصوات بالمدّ والغُنّة والإخفاء والإظهار فحسب، بل إن هذه وسائلُ تؤدي إلى أن يأخذ المعنى امتدادَهُ الكاملَ في النفس والعقل والشعور، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فما أثر هذا الاستماعِ والإنصات إذا اقتصَرَ على متابعة الأصوات المترددة مهما بلغ صاحبها من إتقانها وحُسْن إخراجها؟ بل المرادُ ـ لا غير ـ الفهمُ والتدبُّرُ وإعمال العقل والفكر، ولا نذهب بعيداً، فهؤلاء الجنُّ أنفسُهم لم يَتَأَتَّ لهم الإيمانُ إلا بعد سماع القرآن الكريم وفَهْم معانيه مما أَدَّى بهم إلى الإيمان، ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢] فكيف أدركوا هدايتَه إلى الرشد لو لم يفهموا معانيه؟

* * *

والكافرون أنفسُهم أدركوا قدرة القرآن على التأثير في سامعه؛ فقد وَصَف الله تعالى موقفَ الكافرين العرب، وخوفَهم من سماع القرآن الكريم المؤثِّر برفعة أدائه العربي وقوةِ أسلوبه، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فهم يَخْشَوْنَ تأثيرَه إذا سمعوه، ولذلك يَصُمُّون آذانَهم عن سماعه، ويتواصَوْنَ بالشَّغَب على مجالسه... ولعل هذا يفسِّرُ لنا سرَّ استفتاح بعض القنوات والإذاعات العالمية؛ ذاتِ الصبغة غير الإسلامية، برامجَها وبدايات بَثّها بآياتٍ من القرآن الكريم!!

إن الإنسان في دنيا الناس يقرأ ليتعلم، أما نحن فنتعلم لنقرأ!! لأن الهَمَّ كلَّه ينصرف إلى حسن الأداء، وضبط الشكل، وسلامة المشافهة، وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصة للانصراف إلى التدبر والتأمل، وغاية جهده إتقان الشكل!! إننا لا نُهَوِّن من أهمية ضبط الشكل، وحُسْن الإخراج،

وسلامة المشافهة، لكننا ندعو إلى إعادة النظر بالطريقة، حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتفكُّر والتدبُّر التي تترافق مع القراءة.

إنني أدعو القائمين على برامج تحفيظ القرآن الكريم إلى أن يُعيدوا النظر في أسلوب الحفظ وتوصيل القرآن إلى الأجيال القادمة، فالأمر يحتاج إلى مدارسةٍ وطريقةٍ تربوية تجعلنا نَسْتَجيشُ المعانيَ، ونَحْيا بها ولها، ولا نكوّن أشرطةَ تسجيل، كلُّ ما لديها أنها تستوعب الألفاظ، وانتهى الأمر.

إن سالم بن معقل، مولى أبي حذيفة (ت: ١٢هـ) في غزوة أحد، لما رأى العدو قد أحاط من كل جانب ثبت وغرس حربته، وأبى أن يتزحزح من مكانه وقال: «بئس حاملُ القرآن أنا إن أُوتيتُ من قبلي» فكان نموذجاً للقرآن الكريم عندما ينطلق قذيفة حية لأداء رسالة الهدى والنور.

* * *

وأشهد لو أن العربية كانت تعيش على ألسنة العرب اليوم أيام شبابها، إذاً لكان للقرآن أثرٌ فريد في حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

ولكن عدوّاً شَرِساً لهذه الأمة عَرَفَ كيف يُسَدِّد الطعنةَ إليها، وأدرك السبيلَ إلى تجفيف رَوَافِدِ العِزّ في حياتها، فانحطّ في أسباب الكيد لثقافتها العربية وذاتيتها الإسلامية، عن طريق إبعادها عن سلطان هذا الكتاب وحَجْبها عن أسباب التأثُّر به.

* * *

إن هذا القرآن هو ما بقي من وحي السماء في هذه الدنيا، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، ما شانه نقصٌ ولا شابته زيادة منذ نزل إلى يوم الناس هذا، فهو بحفظ الله مصونٌ من أهواء الناس، ووساوس الجن والناس...

وبقاء هذا القرآن هو العزاء الوحيدُ عن ضياع مواريث النبوات الأولى؛ لأنه استوعب زُبْدَتَها، وقدم في هِدَاياته خلاصةً كافية لها، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩].

* * *

وفي هذا الكتاب الكريم دعواتٌ صارخة للتدبر فيه، وفي الكون والإنسان والحياة؛ ففي سورة البقرة دعوةٌ وتوجيه للعناية بهذا الكائن الحي من أجل توفير الغذاء للبشر كافة، وفي سورة النساء مَلْمَحٌ لطيف للاهتمام بنصف سكان الأرض وهم الأمهات والأخوات والزوجات والبنات، ومعهن تكون المودة والرحمة والسكينة.

وفي سورة الأنعام حثٌّ لدراسة عالم الحيوان والعناية بالأنعام.

وفي سورة النحل تأكيد على العناية بعالم الحشرات، ودورها في إنتاج الغذاء الشافي الضروري لحياة الإنسان ونشاطه وعافيته.

وفي سورة العنكبوت إشارة إلى امتلاك القوة الحقيقية وعدم الاغترار بمظاهر القوة، وفي سورة

الروم دعوة لدراسة الحضارات وكيفية نشوئها وازدهارها وآثارها الحضارية، وفي سورة سبأ يمكن القول: إن فيها دراسة أسباب نشوء الحضارة التي ازدهرت واشتهرت ببناء السدود التي تعدّ بالمئات، والتي شيدت في الجزيرة العربية للاستفادة من مواسم الأمطار لتخزينها والاستفادة منها في التنمية الزراعية الضرورية لتحقيق التنمية الشاملة من أجل الكفاية وتعميم الرخاء والرفاه...

وفي سورة الشورى تأكيد على دور الشورى والتشاور في ازدهار التشريع والقانون، وفي سورة الحديد عناية بالمعادن الثمينة، وصناعة الخلائط والسبائك النادرة ذات المواصفات المتينة.

وفي سورة الدخان إشارة لدراسة تأثير الدخان في الغلاف الجوي.

وفي السُّور الكريمة: البروج والنجم والقمر والشمس والفجر والليل والضحى دعوةٌ لدراسة الفضاء والفلك، وما فيه من مجرات وعوالم وكائنات، وفي سورة الحشر والصف والعاديات والفيل دراسة للعلوم الحربية والعسكرية، وفي سورة اقرأ والقلم دعوة للعلم والتعليم والبحث العلمي والعناية بأدوات الكتابة...

لا عجب أن تكثر الدراسات حول هذا الكتاب الخالد حتى لا تُحصى، وأن تفيض القرائح والأقلام بالمؤلفات من دراسته حتى لا تسقصى، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الردّ.

وبعدُ: فهذا هو كتاب «**الإتقان في علوم القرآن**» للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى، المتوفى سنة (٩١١هـ)، أكرِمتُ بخدمته رجاء أن أُدلي بدلوي في خدمة هذا الكتاب الكريم، كي لا نُحْرَمَ من الأجر في قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه عثمان بن عفان مرفوعاً: «**خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه**»[(١)].

وكانت الخدمة محصورة فيما يلي:

١ ـ سبق لهذا الكتاب أن طُبع في دمشق وبيروت والقاهرة، فأفدنا من هذه الطبعات، وكانت بمجملها ثلاثَ طبعات.

٢ ـ حررتُ النص ما استطعتُ إلى ذلك من خلال ضبطه، وتوزيع فقراته، واستعنا باللون الأسود القاتم والأحمر في سبيل ذلك.

٣ ـ خرجت الآيات الكريمة، وكان نقلها من خط المصحف برواية حفص، وذلك أمناً من التحريف أو التغيير أو التبديل!!

٤ ـ خرجت الأحاديث الشريفة تخريجاً مختصراً، وذلك بعزوه إلى اسم المخرج مع ذكر الرقم[(٢)] عقب الحديث مباشرة، وبعد وضعه بين معقوفتين.

---

(١) أخرجه البخاري: ٥٠٢٧، ومسلم: ٤١٢.

(٢) وكان الاعتماد على ما يلي:

أ ـ مسند أحمد: ترقيم مؤسسة الرسالة. =

٥ ـ نقلتُ حكم العلماء على الحديث، قد أصرح باسمهم وقد لا أصرح، إلا ما كان من المصنف السيوطي رحمه الله تعالى، فاكتفيتُ بحكمه، بعد أن جعلته بلون غامق.

٦ ـ ما كان مفهوماً من سياق الكلام أغفلتُه ولم أشرحه؛ إعمالاً لعقل القارئ، وما لم يكن مفهوماً شرحتُه بإيجاز قدر ما يغدو المعنى واضحاً.

٧ ـ عزوتُ أقوال العلماء إلى مواضعها في الكتب بالجزء والصفحة إن كان الكتاب أكثر من جزء، وبالصفحة إن كان جزءاً واحداً، ما لم يكن كتاب حديث فبالرقم كـ «الجامع الصغير» للطبراني.

٨ ـ ترجمت للأعلام مبيناً اسمه ولقبه ومكانته العلمية وسنة وفاته، مع ذكر المرجع أو المصدر لمن رغب الاستزادة أو التأكد!!

٩ ـ جعلت فهرساً للأعلام في آخر الكتاب.

١٠ ـ ترجمت للمصنف السيوطي رحمه الله تعالى ترجمة مختصرةً، مع ذكر المراجع والمصادر لمن رغب بالاستزادة.

وختاماً: هذا جُهْدُ المقلّ، فمن رأى خيراً فلا يَحْمَدَنَّ إلا الله تعالى، إذ وَفَّق وأعان، ومن رأى غير ذلك فلا يلومَنَّ إلى تقصيره وضَعْفَهُ، والله الغفورُ ذو الرحمة الواسعة.

اللهم لا تُعَذِّب لساناً يُخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدُلُّ عليك، ولا قَدَماً تمشي إلى خدمتك، ولا يداً تكتُبُ حديثَ رسولك، فبعِزَّتك لا تدخلني النار، فقد عَلِمَ أهلُها أني كنتُ أذُبُّ عن دينك. اللهم آمين، آمين.

وكتبه

مصطفى شيخ مصطفى

الأحد الثالث عشر من ربيع الأول ١٤٢٨هـ
الموفق (١) نيسان ٢٠٠٧م

= ب ـ البخاري: ترقيم فؤاد عبد الباقي المشهور.

ج ـ مسلم: ترقيم طبعة دار السلام والفيحاء المتسلسل.

د ـ الترمذي وأبو داود وأبو ماجه: ترقيم دار السلام والفيحاء.

هـ ـ النسائي إن كان في «الكبرى» ترقيم مؤسسة الرسالة، وإن كان في «المجتبى» فترقيم دار السلام والفيحاء، وباقي المراجع الحديثية على ما هو معروف عند المشتغلين بهذا الفن.

ترجمة جلال الدين السيوطي

٩١١هـ

هو عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الإمام الحافظ المؤرخ الأديب، من أسيوط مصر.

نشأ يتيماً فحفظ القرآن وله دون ثمان سنين، ولزم مشايخَ كباراً منهم البلقيني والحافظ المناوي، وتقي الدين الشبلي، ومحيي الدِّين الكافيجي، وسيف الدِّين الحنفي.

قال السيوطي: ولما حججت شربت ماء زمزم لأمور منها: أن أصل في الفقه إلى رتبة سراج الدِّين البُلْقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر.

رزقه الله التَّبَحُّر في التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبديع.

والسيوطي مجددٌ من مجددي هذه الأمَّة على رأس المئة التاسعة.

نشأ بينه وبين علماء عصره تنافسٌ شديدٌ حتى وصل إلى حدِّ الحسد والاتِّهام.

والحقُّ: أن السيوطي قد بلغ رتبةً عاليةً في ضبط المذهب الشافعي، وتخريجه وجمع الأقوال المختلفة لوجوهه ونظائره، ودرايته بأصول المذهب.

بلغت آثاره فيما عدَّ المستشرق بروكلمان (٤١٥) مصنفاً، وذكر الأستاذ جميل بك العظم (٥٧٦) مصنفاً.

من أشهر هذه المصنفات:

«الإتقان في علوم القرآن» ـ وهو كتابنا هذا ـ، «الدُّر المنثور في التفسير بالمأثور»، «تفسير الجلالين»، «تدريب الراوي»، «الأشباه والنظائر في الفقه»، و«الأشباه والنظائر في النحو»، «جمع الجوامع»، «طبقات المفسرين»، «إسعاف المبطأ في رجال الموطأ»، «حسن المحاضرة».

شبهة وردُّها:

قيل: إن السيوطي أخذ هذه المصنفات الكثيرة من المكتبة المحموديَّة وغيرها، والتي لا عهد لكثيرٍ من العصريين بها في فنون عدَّة، فغيَّر فيها يسيراً، وقدَّم وأخَّر، ونسبها لنفسه.

وهذه الخزانة كانت في أمانة الحافظ ابن حجر العسقلاني، وكان بها نحوٌ من أربعة آلاف مجلد.

وقال عنها ابن حجر: إنَّ الكتب التي بها ـ وهي كثيرةٌ جداً ـ من أنفس الكتب الموجودة الآن بالقاهرة، وهي من جمع البرهان ابن جماعة في طول عمره، فاشتراها محمود الأستادار من تركته بعد موته، ووقفها وشَرَط أن لا يخرُج منها شيء من مدرسته. اهـ.

والحقُّ أنَّه لا عَيْبَ في النقل عن السابقين، مادام صاحب النقل يعزو الأقوال لأصحابها، وأحياناً كثيرةً يذكر مصادرها من كتبهم.

أما أنَّ السيوطي انتحل هذه المؤلفات فذاك أمرٌ دونه الإثبات والبينات.

قال السيوطي في «**المزهر**»: ومن بركة العلم وشكره، عَزْوُهُ إلى قائله...ولهذا لا تراني أذكر في شيء من تصانيفي حرفاً إلا معزواً إلى قائله من العلماء، مبيناً كتابه الذي ذكر فيه[1].اهـ.

(١) «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» (٢/ ٣١٩). وانظر مصادر ترجمة السيوطي في: «الضوء اللامع» للسخاوي (٤/ ٦٥ ـ ٧٠)، «شذرات الذهب» (٨/ ٥١ ـ ٥٥)، وفي «حسن المحاضرة» (١/ ١٨٨) ترجمة له من إنشائه، «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» لنجم الدِّين الغزي (١/ ٢٢٦)، «البدر الطالع» للشوكاني (١/ ٣٢٨ ـ ٣٣٥)، «هدية العارفين» (١/ ٥٣٤ ـ ٥٤٤)، «الأعلام» (٣/ ٣٠١ ـ ٣٠٢)، مقدمة «تدريب الراوي» للأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف، مقدمة «الأشباه والنظائر» في الفقه للأستاذ محمد المعتصم بالله البغدادي. وللأستاذ الدكتور بديع اللحام: «الإمام السيوطي محدثاً» (أطروحة دكتوراه)، وللدكتور محمد يوسف شربجي: «الإمام السيوطي مفسراً» (أطروحة دكتوراه).